السينما العربية ويوسف إدريس:

تسطيح الفن وإخضاع الأدب لمنطق السينما

القاهرة/ الثورة

● لم تتمكن السينما المصرية من الاستفادة من الابداع الثري والمتنوع للأديب الكبير الراحل "يوسف إدريس" فلم يظهر اسمه على التترات إلا (١١) مرة فقط، منها تسع مرات عن قصص وروايات له بينما استوحى المخرج "أشرف فهمي" قصة فيلمه "عنبر الموت" عن مقالات يوسف إدريس والتي تناول فيها قضايا الأغذية الملوثة بالاشعاع والمرة الوحيدة التي تعامل فيها "يوسف إدريس" مباشرة مع السينما كانت في قصة فيلم "حدوتة مصرية" والتي كتب لها السيناريو "يوسف شاهين" في الفيلم الذي كان فاتحة أفلامه عن سيرته الذاتية.

أما التسع مرات التي تعاملت فيها الشاشة المصرية مع إبداع يوسف إدريس فقد اعتمدت على روايتين: "الحرام" و"العيب" وثلاث نوفلات أو روايات قصيرة "لا وقت للحب" عن قصة حب و"قاع المدينة" و"حلاوةالروح" عن العسكري الاسود وأربعة عن قصص قصار هي "حادثة شرف – النداهة – على ورق سيلوفان – العسكري شبراوي "عن قصة "مشوار"

وهكذا لم تقترب السينما من ابداع يوسف ادريس برواياته ومسرحياته وقصصه القصار التي ملأت أربع عشرة مجموعة قصصية، إلا تسع مرات فاضاعت على نفسها فرصة للنهل من نبعه العميق، ثم أعادت اضاعة الفرصة في الأفلام المأخوذة عن قصصه فالسينما لم تحافظ على عمق رؤية الكاتب الكبير وإنما حاولت ان تطوع ابداعه لمقتضياتها فسطحت فنه العميق وربما لم تنتج السينما فيلماً جملاً عن عمل ليوسف ادريس الا مرتين في "الحرام و"لا وقت للحب" أما في الافلام السبعة الاخرى فقد تباين نصيب الافلام من النجاح حيث حققت بعضها نجاحاً محدوداً مثل "النداهة و"قاع المدينة" بينما فشل "العسكري شبراوي "فشلاً ذريعاً.

الحرام

أول ظهور ليوسف ادريس على الشاشة كان مع المخرج "هنري بركات" في فيلم "الحرام" فقد استطاع كاتب السيناريو والحوار "سعد الدين هبة" ان ينفذ الي جوهر رؤية يوسف ادريس " كما وفق المخرج "بركات" في اختيار طاقم الممثلين وادارتهم وقد كانوا جميعاً من الموهوبين وعلي رأسهم "فاتن حمامة" و"زكي رستم" و"عبدالفتاح البارودي" كما وفق في توظيف الموسيقى التي استخدمت الآلات الشعبية فأضافت الي الصورة عنصراً جمالياً أسهم مع استثمار المخرج للتصوير في الاماكن الطبيعية للأحداث في اشعارنا وكأننا نعيش الحدث مع شخوصه ليقدم الفيلم بانوراما رائعة لحياة عمال التراحيل بلا خطابة أو ثرثرة مبرزاً اشد اللحظات الدرامية في حياتهم.

تدور احداث "قصة حب" خلال فترة الاحتلال الانجليزي قبيل ثورة يوليو، ونتابع لحظات هروب "حمزة" الثائر من قبضة المحتل مصوراً نشوء علاقة الحب بين حمزة وفوزية وتطورها لتجذب "فوزية" الى الكفاح والمقاومة، وقد أعد السيناريو للفيلم كاتب ايطالي هو "لوسيان لا

مبيربت" وكتب الحوار يوسف ادريس بنفسه في سابقة لم تتكرر، ولم يكن حوار الفيلم بمستوى الحوار في قصص يوسف ادريس من ناحية شاعريته أو قدرته التعبيرية، ولعل فشل فيلم "العيب" الذي كتب حواره يوسف ادريس ايضاً هو ما منعه من تكرار التجربة. فحتى حينما كتب سيناريو "حادثة شرف" تخلى عن كتابة الحوار وايضاً كان هذا السيناريو سابقة لم تتكرر فلم يكن الا محاولة لإعادة سرد القصة وترجمة السطور ترجمة حرفية إلى كادرات فجاء الفيلم باهتاً، وعانى السيناريو من خلل واضح في البناء فلم يعد يوسف ادريس لكتابة سيناريو بعدها.

. اما فيلم "العيب" فهو واحد من الافلام القليلة التي أخرجها للسينما المخرج المسرحي الشهير "جلال الشرقاوي" وأعد السيناريو كاتب لم يستمر طويلاً في السينما هو "رمضان خليفة" وقد حاول الإثنان اخضاع الفن للسياسة، فالرواية تصور السقوط الاجتماعي والجسدي لفتاة أظطرتها ظروفها القاسية للتخلي عن مفاهيمها للشرف والكرامة لكن الفيلم حاول مغازلة المرحلة – الستينات – فغير النهاية وجعل الفتاة تواصل الصمود في وجه الظروف القاهرة وجاءت الشخصيات مسطحة، وقد شاركهما يوسف ادريس بكتابته للحوار في هذه الرؤية فتحمل الثلاثة معاً مسئولية فشل الفيلم.

قاع المدينة

اشتهر المخرج حسام الدين مصطفى بأفلامه المقتبسة عن روايات "ديستويفسكي" وكانت الافلام تجارية تغازل شباك التذاكر ولم تحتفظ من ديستويفسكي الا بالاسم وقد فعل ذلك ايضاً مع قصة يوسف ادريس "قاع المدينة" في الفيلم الذي حمل نفس الاسم وساعده على ذلك السيناريو الذي أعده الاديب "أحمد عباس صالح".

فالرواية تتناول علاقة القاضي "عبدالله" الثري الاعزب العاجز جنسياً مع الخادمة "شهرت" بتراءى للقاضي ان شفاءه لن يكون الا على يدي "شهرت" او على جسدها وحينما يتحقق له الشفاء فانه يدفع الخادمة الى طريق البغاء، فالرواية عن الجنس باعتباره موضوعاً يمكن أن يكون محل تفسير نفسي واجتماعي، وبينما صناع الفيلم رأوها رواية جنسية واجتهد "حسام الدين مصطفى" في استغلال "نادية لطفي" ليغازل به شباك التذاكر ولا يهمه ان أفقد الفيلم مغزاه او سار به في طريق آخر غير طريق الرواية الاصلية.

النداهة

نفس الشيء تقريباً حدث مع فيلم "النداهة" وقد اعد السيناريو "عاصم توفيق" و"مصطفى كامل" وأخرجه "حسين كمال" وقد اثبت صناع الفيلم عجزهم عن فهم فكر "يوسف ادريس" فالنداهة قصة تحكي عن القرية في مواجهة اغراءات وغوايات المدينة وما فتحية " الا رمز .. لكن الفيلم اختار أن يقتصر على تتبع طريقها للسقوط، وبدلاً من ان يقبح الافندي الذي يغوي فتحية – كما فعلت القصة – راح يصوره جذاباً وسيماً .. مهندس كمبيوتر ناجح وثري وتحبه الجميلات. ولم يفلح الفيلم في إظهار ما تريده "فتحية" فهل هي تريد ان تكون امرأة عاملة ذات دور، ام تريد عالم المجون في شقة المهندس وحتى في مشهد الاغتصاب فشل المخرج والممثلة"ماجدة" في اقناعنا بانها مغتصبة بل بدت وكأنها سعت إلى ذلك، وبذلك شوه الفيلم رؤية "يوسف ادريس"فقد كان هدف مخرجه ترديد شعارات الانفتاح الاقتصادي وقد كانت صاخبة وقت انتاج الفيلم وتصور الانفتاح بوصفه توجها سياسياً واجتماعياً.

"حلاوة الروح" .. فيلم كتبه المخرج "أحمد فؤاد" عن قصة العسكري الاسود، وفي القصة نلتقي بالدكتور "شوقي" صاحب الشخصية المركبة في انتكاستها من التمرد الى الاستكانة ومن انكار الذات والتضحية الى الابتزاز وطلب الرشوة .. انه باختصار مثال للمثقف الذي تحطم بفعل سلطة غاشمة تقمع من يخالفونها، وهي القصة التي وصفها النقاد بأنها "اصدق عمل ادبي مصري عن اضطهاد الرأي" كتبها سينمائياً المخرج "أحمد فؤاد" فاظهر شخصية "شوقي" هشة وحتى في لحظات التمرد لم تنطق الشخصية الا بشعارات، وفشل الفيلم في اظهار شوقي كإنسان، وقدم الفيلم وجهين للسلطة متمثلة في رجال البوليس السياسي وتطرق الي الحياة الشخصية والعائلية لكبار رجال البوليس السياسي دون هدف درامي ومتحولاً الي مجرد ثرثرة تبتعد عن الهدف الاساسي للقصة.

العسكري شبراوي

مما يدعو للاسف ان مخرج فيلم "الحرام" وهو أهم فيلم اعتمد على ادب يوسف ادريس هو نفسه مخرج فيلم "العسكري شبراوي" اسوأ هذه الافلام، فكاتب سيناريو الفيلم "أحمد الخطيب" التقط من قصة "مشوار" فكرة توصيل امرأة مجنونة من القرية الى مستشفى الامراض العقلية بالقاهرة بواسطة "العسكري شبراوي" فصاغ مواقف هزلية مبتذلة تكشف في نهايتها عن ان الفتاة ليست مجنونة بل تدعي الجنون، فتذهب مع شبراوي الي المأذون بدلاً من مستشفى الامراض العقلية .. وثمة فارق كبير بين الكوميديا السوداء في "مشوار" والهزل في "العسكري شبراوي" فلم يبق من قصة يوسف ادريس الرائعة غير ملامح باهتة تدل على فيلم مبتذل.

وقد تبرأ يوسف ادريس من هذا الفيلم مؤكداً انه مسئول فقط عن قصة "مشوار" المنشورة ولعل ذلك ما صرف صناع الافلام عن أدب يوسف ادريس فبعد ذلك لم نر الا فيلمين استخدم فيهما اسم يوسف ادريس ولا ينتميان الى ادبه وهما "حدوتة مصرية" من حياة مخرجه "يوسف شاهين" و"عنبر الموت" وقد كتب له السيناريو "مصطفى محرم" عن مقالات ليوسف ادريس وتم استغلال اسم يوسف ادريس في الافيشات باعتباره صاحب القصة، والفيلم يتناول قصة الأغذية الفاسدة التي يتم تهريبها إلينا من دول الغرب، وأحداثه كلها من صنع كاتب السيناريو حتى وان التقط الخيط الاصلي من مقالات صحفية ليوسف ادريس.

وأخيراً فقد اختلف مستوى الافلام المأخوذة عن قصص ليوسف ادريس تبعاً لاختلاف المرحلة وليس لاختلاف صانع الفيلم. فهنري بركات صاحب " الحرام" هو نفسه مخرج "العسكري شبراوي" مما يثبت ان عوامل مثل التكوين الثقافي للمخرجين وكتاب السيناريو تتضافر مع ظروف الانتاج السينمائي والملابسات الاجتماعية وقت انتاج الفيلم لتقدم فيلماً يستغل اسم يوسف ادريس دون ان يستطيع الافادة من رقي أدبه بل أخضع الأدب لمتطلبات السينما التجارية.

تأملات في رحلة فرانكفورت

لنا عبد الرحمن

● انتهى معرض فرانكفورت وعاد العرب إلى ديارهم سالمين غانمين ، فرحين منتعشين بعد حلولهم ضيوفاً لأول مرة بشكل رسمي على الشعب الألماني ، ولعل المتتبع لسير ومجرى الاستعدادات التي سبقت الرحلة الفرانكفوتية وانهماك الناشرين العرب في الإعداد والتنسيق والاختيار المرتب للكتب العربية المترجمة إلى الألمانية سيقف على مدى عشوائية ما حدث ، فالعرب هللوا ومجدوا للترحيب الثقافي الغربي الذي حل عليهم، والذي تمثل باستضافة الثقافة العربية ضيفاً شرفياً في «فرانكفورت» ،في حين أن العرب أنفسهم هم الذين قاموا بترجمة كتبهم من العربية إلى الألمانية ووفق اختياراتهم الخاصة ورضاهم عن العمل الإبداعي، أي أن العرب قدموا للألمان ما رأوه مناسباً للترجمة ، وليس العكس في حين أن الأمر الطبيعي أنه يقوم الطرف الآخر الباحث عن الثقافة العربية والساعين إليها بالقراءة والاختيار وفق حاجة المجتمع الألماني للمعرفة عن العالم العربي والتراث الإسلامي ، وما يدور حوله من تساؤلات وتهم بالإرهاب، ذلك على اعتبار أن الكتاب العرب قد قدموا نتاجهم الفكري والإبداعي الذي يسمح للغير بالاختيار والترجمة منه ، كما يحدث عادة أن يقوم المترجم بالإطلاع على ثقافة ما واختيار ما يجده مناسباً من هذه الثقافة ليقدمه لمجتمعه وفق رؤيته ومعرفته العميقة بالنقص المعرفي الذي على المترجم أن يقوم بالإضاءة عليه وكشف الجوانب المجهولة ، التي تدور حولها الاستفسارات .. ومن هذا المنطلق نقل إلى العربية كل هذه الأعمال العالمية التي تملأ بها أرفف مكتباتنا ، حين قام مترجمون عرب بقراءة هذه الأعمال ونقلها إلينا في حين أن العرب في فرانكفورت عملوا جاهدين أن يقدموا رؤيتهم المترجمة عن أنفسهم للعالم الغربي، بهذا المعنى ثمة تجاهل حقيقي للمشكلة، المشكلة هي كيف يرانا الآخر، وما هي تساؤلاته عنا؟ لا كيف نرى نحن أنفسنا وكيف نقدمها ؟ أقول هذا الرأي مكتفية بأن لا أتطرق لأزمة الترجمة الداخلية بين العرب أنفسهم، ووجود أعمال إبداعية كثيرة ولأسماء لامعة يتم تجاهلها وإقصائها عن دائرة الترجمة إلى أن تمر الأجيال تتلوها الأجيال ، ليتم الكشف عن كاتب ما أبدع في يومٍ ما يستحق أن يقرأه العالم.

الفنان التشكيلي عبدالقادر الريس:

أركز على التراث المعماري .. ووظيفة الفنان توصيل المعاني البعيدة

▫ الدوحة/خالد طه

● تتميز أعمال الفنان التشكيلي الاماراتي/ عبدالقادر الريس بطابعها التراثي الأصيل الداعي لتجذير هذا التراث المعماري الفريد الذي لاتخطئ مفرداته عين المشاهد الخليجي نظراً لقربها الشديد من الواقع المرئي المعاش في دول الخليج.

ورغم ثراء المحتوى الفكري لإبداعاته الرائعة يلاحظ هذا الفنان المخضرم يهتم كثيراً بإثراء خطابه التشكيلي بجماليات المشهد البصري والمعاصر والبسيط والميسر في نفس الوقت حيث يهتم بأدق التفاصيل ولا يهمل العموميات، وقد كان لنا أن نلتقي الريس في هذا الحوار:

● دخولك لعالم الفن التشكيلي هل كان بدافع الموهبة أم الهواية؟

– هو هواية بطبيعة الحال، وأنا لم أدرس الفن التشكيلي، ومنذ سن المدرسة وأنا أمارس الرسم، وكان ذلك سبباً لتفوقي ثم واصلت دراستي في الكويت وأستراليا، وبدأت مع تاريخ الفن التشكيلي ومشيت على خطى الفنانين العالميين مثل رافائيل ومايك أنجلو وغيرهم من فناني عصر النهضة، ثم تأثرت بالمدرسة الرومانسية وتحديداً عام ١٩٦٦/٦٥م، ثم حاكيت المدرسة التأثيرية في عام ١٩٦٨/٦٧م، ثم برزت شخصيتي المستقلة في أعمالي وبدأ بعض الفنانين يتاثرون بأعمالي ويحاكونها.

● ماذا عن معارضك التي أقمتها حتى الآن؟

– أول معرض شخصي أقمته عام ١٩٧٤م في الامارات، ثم تبعه ٢٣ معرضاً شخصياً في الامارات وبعض الدول العربية منها لبنان والمغرب والكويت وقطر وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا، كما عرضت في واشنطن أيضاً شاركت في معارض جماعية في كافة قارات العالم عرضت فيها جميع أعمالي.

● هل وصل إنتاجك مرحلة البيع وكم أغلى مبلغ تقاضيته على أعمالك؟

– أول لوحة لي بعتها في عام ١٩٦٨م بمبلغ ٣٠ ديناراً كويتياً، وكان هذا المبلغ بمثابة راتب موظف وأغلى لوحة بيعت لي في الامارات بمبلغ ٣٠٠ ألف درهم.

● ماهي المواضيع التي تحاول تجسيدها في أعمالك؟

– أنا أركز على التراث المعماري الخليجي إضافة إلى نبض البحر ثم انتقلت مؤخراً إلى رسم المناظر الطبيعية المستوحاة من البيئة الاماراتية والعمانية، ومن بداية التسعينات دخلت مرحلة تحد وبدأت أمزج بين التجريد والتراث ثم أدخلت على أعمالي حرف الواو وعملت مجموعة الواو واستخدمت فيها مادة الزعفران.

● ماهو سر اهتمامك بالأعمال المعمارية التراثية؟

– عادة حينما تكون هناك علاقة بين الفنان والمادة التي يرسمها والخامة المستخدمة يتولد عن ذلك استمرارية، وحقيقة أنا مغرم بحب الخشب والحجر وهاتان المادتان أركز عليهما كثيراً في أعمالي.

● ماذا عن تعاونك مع الفنانين التشكيليين العرب؟

– تربطني علاقة طيبة ببعض الفنانين الخليجيين، وكذلك العرب في المغرب والعراق واليمن.

● ماهي اللوحة التي لفتت انتباه الريس وتتمنى تقديم عمل في مستواها؟

– لاشك أن هناك أعمالاً خالدة أنا معجب بها منها أعمال الفنان الهولندي رامبا وكنت استعمل نفس أسلوبه في استخدام النور والظل وهذا كان لفترة كذلك استهوتني أعمال الفنان الأمريكي أندريه وايف لفترة، والفنان جاكو ديفيد الذي أعتبره من أعظم الفنانين في التشريح وأفضل لوحاته على مستوى العالم كذلك تستهويني أعمال ليوناردو دافنشي أستاذ الفن التشكيلي. وفي العصر الحديث هناك فنانون لهم أسلوب متميز.

● يبدو عليك النزعة الدينية فهل لذلك تأثير على أعمالك؟

– لو تلاحظ أن كل أعمالي تعبر عن الأشياء المبثوثة في الكون والدالة على عظمة الخالق عز وجل.

● أفهم من ذلك أنه لايوجد تعارض بين أعمالك والتشريع الإسلامي؟

– لا لأن الإسلام يحرم الأشياء التي فيها روح كالطير والانسان وأعمالي كلها جماد من أشجار وبحار وغيرها.

● ماهو الجديد في أعمالك؟

– طبعاً الأبواب مادة تستهويني ولا أستطيع الابتعاد عنها، وحقيقة هي عمل شاق وتحتاج إلى تركيز شديد.

● وصفت أعمالك بأنها عبارة عن سجل بصري يؤرخ للعديد من القيم الجمالية في التراث المعماري، ماذا قصدت من ذلك؟

– الانسان عادة حينما يمر على بيت لايثير اهتمامه أما حينما يشاهد ذلك على لوحة لفنان فيمكن أن يستوقفه المنظر وهذه وظيفة الفنان أن يوصل للمتلقي معاني بعيدة لايدركها بمفرده.

● ماهي مشاكل الفنان التشكيلي الخليجي؟

– الفنان عادة يحاول أن يكون له نصيب من التركيز والاهتمام، وكما هو معروف أن الدول تقاس حضارتها بالأمور الثقافية ومنه الفن التشكيلي ونتمنى بهذا الجانب خاصة الفنانون المبتدئون ويوجد من هؤلاء من يتعب ويخسر موادا ومالاً ثم لايجد الاهتمام والتشجيع ولا تباع أعمالهم في الوقت الذي يتم فيه استيراد الأعمال من الخارج. فالمفروض تشجيع فناني الداخل خاصة وأن أعمالاً لكثير منهم أفضل من المستوردة ولكنها عقدة المستورد.

● هل تقصد أن بعض فناني الخليج التشكيليين في مرحلة إفلاس مادي؟

– نعم وبعضهم لايستطيع فعلاً تعويض خسارته على اللوحات وهذه حالة عامة في كل دول الخليج.

الإبداع العربي.. واستجداء الآخر

فاروق جويدة ●

■ لا اعتقد أن العرب ذهبوا الى فرانكفورت ليقدموا لهم ثقافة ترتدي المايوه والقبعة.. لأن ذلك يعني أنهم سيقولون لنا هذه بضاعتنا ردت إلينا.. مهما كانت تجاوزات الكتاب والمبدعين العرب في فتح أبواب الحرية في الكتابة حتى وصلت الى درجات العري، إلا أن هذه التجاوزات لن تصل الى ما وصل اليه الغرب..

ومهما كانت الجراة، بل البجاحة في طرح القضايا الاجتماعية، فانها ستبدو هزيلة أمام ابداعات تجاوزت كل الحدود والتقاليد والأعراف.. ولهذا كانت هناك نماذج غريبة في الكتابة صدمت الكثيرين من العرب وأنا واحد منهم.كان شيئا غريبا أن تكون هناك قراءات في القصة العربية، تلاها بعض المبدعين العرب، تشعرك أنك في أحياء البغاء في اوروبا مثل السوهو والبيجال.. هناك نماذج لا استطيع الآن أن أسطرها على الورق لأنها اخترقت كل أسقف الاديان والتقاليد..

وفي أكثر من ندوة وأكثر من قراءة غلب هذا الشطط ووجدنا أنفسنا أمام كتابات لا يمكن أن تكون عربية ولكنها استنساخ رديء لكتابات غربية.

وما حدث مع الرواية والقصة حدث أيضا مع عدد كبير من الشعراء الذين قدموا أنواعا غريبة من الشعر أو ما يسمى " قصيدة النثر"، حيث لا ايقاع ولا صورة ولا لغة.. إنها كلمات تلتحم بكلمات أخرى بلا معنى ولا هدف.. وللأسف الشديد أن هذا النوع من الكتابة النثرية الركيكة الذي يسمى قصيدة نثر كان هو الاغلب، ولهذا لم يتجاوب معه احد ابتداء بالجمهور العربي.. وانتهاء بالمستمع الالماني..

في جانب آخر، كان بعض اصحاب الفكر يطرحون آراء وقضايا تخدم أفكارا غريبة تجاه قضايا مهمة في الدين والسياسة والاخلاق، حتى أن البعض منهم أرجع كل أسباب التخلف العربي والاسلامي الى ديننا الحنيف إرضاء للغرب وتسولا لرضاه السامي.

من خلال ما أثير من قضايا في أيام المشاركة العربية في فرانكفورت ظهرت على السطح ثلاث قضايا أساسية:-

أولا: أن الغرب لم يستطع حتى الآن أن يفهم حقيقة الدين الاسلامي، وان المسافة كبيرة جدا بين الفهم الغربي للإسلام وحقيقة هذا الدين الحنيف.. إنهم يتوقفون كثيرا عند الفتوحات الاسلامية.. وانها فرضت الاسلام بقوة السلاح.. ويتوقفون كثيرا عند قضية الاستشهاد والجهاد في الاسلام.. ويحاولون الربط بين الاسلام والعنف.. وبعدهما الارهاب..

وتستند هذه الآراء الى العمليات الاستشهادية في العراق وفلسطين.. وما يحدث من قتل للرهائن.. وكان من الضروري أن يقال لهم صراحة إن الاسلام في حقيقته دين تسامح ومحبة، وان الاحتلال الاجنبي واستباحة الأرض والعرض والوطن لا يمكن أن يواجهها الا الدفاع عن النفس.. وان الشهادة في الاسلام دفاع عن الارض، ولا توجد شهادة في عدوان.. وليس هذا مقصورا على المسلمين فحسب، ولكن كل شعوب العالم تدافع عن أرضها وترابها الوطني.. وان الاستعمار الغربي هو الذي استباح مقدرات الشعوب العربية والاسلامية.

ثانيا: إن الغرب يرى الآن – بكل الصراحة والوضوح – أن العالم الاسلامي لابد أن يغير نفسه حتى يصبح جزءا من النسيج الحضاري المعاصر.. ولهذا يجب أن يتخلص من كل شيء يمنعه من ذلك، وأن المطلوب من المسلمين أن يغيروا سلوكياتهم واخلاقياتهم؛ بل وعقيدتهم، بما في ذلك النصوص والشرائع التي تمنعهم من اللحاق بالعصر.. واذا لم يحدث هذا التغيير فيجب أن يحاصروا في بلادهم حتى اشعار آخر وحتى تلحق هذه الشعوب بركب العولمة اذا أرادت ذلك.

وهنا كان الرد بأن الحضارات تختلف، وان سلوكيات الشعوب تعتبر من ثوابتها، وان هناك دولا أخرى تحرص على هذه الثوابت مثل الصين والهند ولم يتدخل الغرب في شؤونها.. لماذا لم يطالب الغرب الحضارات الاخرى بأن تخلع أثوابها وترتدي ثوب العولمة كما يفعل معنا؟!.

وكان من الضروري التأكيد على أن النسيج الحضاري والاخلاقي للدول العربية يخصها وحدها، حسب تقاليدها وظروفها التاريخية والاجتماعية.. وأن هناك أساسيات تحرص عليها هذه الشعوب مثل نظام الاسرة.. والعلاقات الاجتماعية.. وأن السلوكيات الغربية لا تتناسب في بعض مظاهرها مع الانسان العربي.. وأن العرب والمسلمين لا يرفضون الحضارة الحديثة في كل أشكالها، ولكنهم يرفضون بعض السلوكيات الغريبة والشاذة التي لا يمكن أن تكون بديلا عن واقع اجتماعي وانساني صنعته العقائد والاخلاق والقيم عبر آلاف السنين..

ثالثا: إن الغرب يشجع كل ما من شانه أن يشارك في خلخلة النظم الاجتماعية والعقائد الدينية في العالم العربي، ابتداء بالمفكرين والمبدعين الذين يجدون في الغرب النموذج الافضل، وانتهاء بمحاولات التشويه التي تقوم على برامج محددة في الاعلام والفكر والثقافة.

وهنا جاء دور هؤلاء المبدعين العرب الذين تشبعوا – عن قصد – بكل التجارب الغربية في الابداع والسلوك وتحملوا أمام المؤسسات الغربية مسؤولية نشرها وترويجها والدفاع عنها..

ومن هنا كانت تلك النماذج الكثيرة التي قدمها عدد من المبدعين العرب في احتفالية المشاركة العربية في معرض فرانكفورت.. ولهذا بدا الابداع العربي الحقيقي شاحبا، بل غائبا أمام صيحات الجسد.. والكتابات العارية.. وهذه السخرية المرة من كل التراث العربي تاريخا وحضارة ودينا ودورا.لم نكن في حاجة الى أن نقدم هذه الوليمة الغريبة على موائد الغرب، لأنهم يعرفون هذه الكتابات، وهي ليست غريبة عليهم.. ولا أدري هل كانت الاختيارات مقصودة عندما غلبت هذه الانواع من الابداع على معظم المشاركين في الندوات، وأن الاختيارات الحكومية المصرية كانت حريصة على وجود هذه الالوان من الابداع، إما توجها أو استرضاء أو غزلا مع الآخر.. ولا شك في أن فريق الحواريين من أكثر الاطراف التي تسيء لنا وتشوه العلاقة بيننا وبين الغرب لأنهم اصحاب مصالح.. والتواصل يحتاج الى اصحاب فكر..

لقد قرأ المواطن الالماني وسمع نماذج للإبداع العربي هي الاقرب الى الذوق والرؤى الغربية.. وغابت تقريبا – إلا في حالات محدودة – النماذج الابداعية العربية التي تحسب على الثقافة العربية..

وليس معنى ذلك أن نغلق أبواب التواصل أو التأثر بالابداعات الغربية لأن ذلك أمر مستحيل ومرفوض، ولكن ينبغي أن نتأثر بالجوانب الايجابية في التحليل النفسي.. ولغة الحوار.. ورسم الشخصيات.. والعمق الفني.. والبساطة والصدق في الابداع..

أما الاسراف في لغة الجسد.. والبجاحة في التناول، بل والوقاحة في التشخيص والسخرية من الاديان.. كل هذه الجوانب لا تصنع إبداعا جميلا، خاصة اذا خلا من عناصر الفن الحقيقي.. كانت كتابات بعض المبدعين العرب في القصة والرواية والشعر صدمة كبرى لأنها تجاوزت الخطوط الحمراء ودخلت في مناطق أخرى لا يمكن أن تحسب على الفن الجميل..كنت أتمنى أن نجد في ساحات معرض فرانكفورت أصواتا عربية خالصة لا زيف فيها ولا ادعاء ولا مجرد رغبة في ارضاء الآخر.. إن هذا الآخر، مهما كانت رغبته في التشويه، يريد أن يسمع أصواتنا الحقيقية ويرى صورنا بلا رتوش أو عمليات تجميل أو دعاوى كاذبة.. انه يريد أن يرانا على حقيقتنا.. ولو أن نجيب محفوظ اتبع هذه الاساليب في كتابته لما حصل على جائزة نوبل.. لأنه كان يكتب وعينه على الأرض التي خرج منها والوطن الذي عاش فيه.. أما هؤلاء الذين يرقصون على الحبال، ويكتبون للغرب ما يريد، ويقولون له ما يحب أن يسمع.. هم مجرد أدوات يستخدمها في لحظة تاريخية قاسية.. وبعد أن يفرغ من أهدافه لن يحتاج اليهم.. ونكون نحن قد خسرنا فريقا كبيرا من مبدعينا اخطأ في الحسابات..

ينبغي ألا نقف بعيدا ونحن نتحاور مع الغرب.. بل يجب أن نذهب إليه.. وأن نقتحم عقله كما يقتحم عقولنا.. وأن نحاوره على أرضه، وأن نفرض عليه ان ينسى لغة التعالي القديمة بعيدا عن الوصاية والهيمنة.. إننا كأمة نعيش ظروفا تاريخية صعبة.. وهناك مشكلات وأزمات تواجهنا، ولكن المؤكد أن المشكلات لم تعد تخصنا وحدنا، وأن الخلافات ليست من نصيبنا فقط، ولكنها تخص العالم كله.. ولهذا يجب أن تكون لدينا شجاعة المواجهة بالحقيقة والاقناع، والا نلجأ الى أساليب التسول والاستجداء، لأنها لا تتناسب مع أمة صاحبة تاريخ وحضارة.

● نائب رئيس تحرير الاهرام